

حضور زينب بنت علي (ع) في غزّة



حضور زينب بنت علي(ع) في غزّة

اليوم هو الخامس من شهر جمادي الأول هو ذكرى مولد السيدة زينب بنت علي، بطلة كربلاء كما سمّتها الدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ) وفي إيران يُطلق على هذه المناسبة (يوم الممرضة)، لأن زينب هي التي تولّت مسؤولية رعاية سبايا أهل بيت النبوة بعد موقعة عاشوراء سنة 61هـ. وفي هذه الأيام التي تتعرض فيها غزّة لأبشع جرائم حرب الإبادة حيث التركيز الصهيوني الإجرامي على قصف المستشفيات وقتل الكادر الطبي تقف الممرضات هناك صامدات في أقسى الظروف، يمارسن دورهن وسط النار والدمار والدماء والأشلاء الممزقة.. في هذه الظروف جدير بنا أن نستذكر زينب بنت علي في يوم الممرضة، ودورها في مواصلة طريق أخيها الشهيد الحسين بن علي(ع).

دور زينب

عقيلة بني هاشم كان لها الدور الأكبر بعد الحسين في عملية إحياء المجتمع المسلم، فماذا كان دورها الرسالي في تحقيق هذا الهدف الكبير.

لابدّ أن أذكر أولاً أنها كانت - في اعتقادنا - مؤهّلة تماماً لحمل هذا الدور. لا تتوفر لدينا وثائق كثيرة عن شخصيتها، ولكن ما ذكره لنا التاريخ من نتف عابرة هو كاف لمعرفة شخصية هذه المرأة وتأهّلها لهذا الدور. يكفي ما ذكره لنا التاريخ أن هذه المرأة يخاطبها الحسين في أعظم وأصعب موقف في ليلة الاستعداد للقتل والسبي.. في ليلة العاشر من محرم ويقول لها: «يا أختاه لا تنسيني في نافلة الليل».

وثمة وثيقة أخرى بقيت خالدة عن هذه المرأة هي قولها عند وقوفها على جسد أخيها المدمى المقطع بالسيوف المحزوز الرأس.. وهو مشهد يهدّ الجبال ويضعف الأبطال، قولتها المشهورة: «اللهم تقبل منّي هذا القربان».

وثمة وثيقة ثالثة تبيّن تأهّل هذه المرأة لمثل هذا الدور الرسالي ما ذكره المؤرخون أنها أدّت ليلة الحادي عشر من محرم صلاة الشكر..

يا إلهي كفى على عظمتك شهيداً أنك خلقت أمثال هؤلاء العظماء الذين لا تقاس بهم عظمة سماواتك وأرضك!!!

الدرس الكبير العملي الذي قدمته زينب للأمة الإسلامية هو كيف يمكن تبديل حالة الذل إلى حالة العزّة والكرامة.

والبديع في الأمر أن أسرها ساعدها في النهوض بهذا الدور الرسالي التاريخي.

لو كانت زينب عزيزة بإخوتها وأهل بيتها وعشيرتها وأصحابها لما استطاعت أن تؤدّي هذه المهمة. ولكنها وقعت في ذلّ الأسر بعد أن فقدت إختها وأهل بيتها وحمايتها، ولا شك أن الأسر ذلّ ما بعده ذلّ، خاصة حين يكون بيد أناس ذبحوا ابن بنت رسول الله ﷺ وأحرقوا خيم عياله ورضّوا أجساد القتلى بالخيل ومارسوا ألوان الفطامة والقسوة والدناءة.

ولكن دور زينب هو أنها حوّلت هذا الذل إلى عزّة وكرامة، وكأني بها قالت للمجتمع الذي خيّم عليه الذل: أنا امرأة وحيدة لا ناصر لي ولا معين حوّلت حالة الذلّ التي وقعت فيها إلى حالة عزّ فهل فيكم من بقايا كرامة؟!!

كيف مارست زينب هذا الدور الرسالي الكبير؟

1- عدم الشعور بالهزيمة:

وهذه صفة هامة لمن يتأهّل لتحويل الهزيمة إلى انتصار. لو بدى على زينب الانكسار أو الضعف والانهار لما استطاعت أن تؤدّي مهمتها، لكنها في مواقفها كانت من القوة بحيث جعلت المؤرخين يتحدثون عن هذه المواقف.

قال بشر بن خريم الأسدي: «ونظرت إلى زينب بنت علي عليها السلام يؤمّذ فلم أر خفرة أنطق منها كأنها تفرغ عن لسان أمير المؤمنين عليه السلام، وقد أومأت إلى الناس أن اسكتوا فارتدت الأنفاس وسكتت

هذا الموقف يدل على أن صلابة شخصية زينب قد أثّرت على هذا الرجل كما أثّرت على كل المخاطبين بحديثها في الكوفة. يقول الراوي: «لقد رأيت الناس يؤمّئذ حيارى يكون وقد وضعوا أيديهم في أفواههم. ورأيت شيخاً واقفاً إلى جنبي يبكي حتى اخضلت لحيته وهو يقول: بأبي أنت وأمي كهولكم خير الكهول وشبابكم خير الشباب ونساؤكم خير النساء ونسلكم خير نسل لا يُخزى ولا يُبزى». وهذه الصلابة وعدم الإحساس بالضعف أفقدت صواب والي يزيد عبيد الله بن زياد فما بالك بالآخرين الحاضرين في مجلسه حين أدخل عيال الحسين على ابن زياد فدخلت زينب متنكرة وعليها أردل ثيابها، فمضت حتى جلست ناحية من القصر، وحفّت بها النساء. فقال ابن زياد: من هذه التي انحازت فجلست ناحية ومعها نساؤها؟ فلم تجبه زينب، فأعاد ثانية وثالثة يسأل. فقالت بعض النساء هذه زينب بنت رسول الله (ص). لاحظوا عظمة الموقف: دخلت على أعتى مستكبر وأبشع قاتل وأقطع طاغية، فما التفتت إليه، ولا وقفت أمامه، ولا أستأذنته في الجلوس، بل أهملته وانحازت وجلست مع النساء في جانب من القصر، ثم لم تجب على سؤال الطاغية رغم أنه كرره ثلاثاً. هذا يعني أنها لم تستشعر بأي ضعف ولم يساورها أي شعور بالهزيمة.

2- المحافظة على روح العزّة:

حرصت زينب عليها السلام على صيانة روح العزّة لدى سبايا أهل البيت كي لا يستشعروا الذلة في أسرهم، ولكي يكونوا هم أيضاً صورة لمن يأبى أن يُذلّ. في الرواية أن السبايا أدخلوا في دار إلى جانب المسجد الأعظم، ومن الطبيعي أن تزورهم النساء، فتجمعن على باب هذا البيت للدخول على زينب، فخشيت زينب أن يساور نساء آل بيت النبوة نوع من الإحساس بالذلة أمام بقية النساء، فرفضت زينب دخول النساء عليها وقالت: «لا تدخل علينا إلا مملوكة أو أم ولد فإنهنّ سُبّين كما سُبّينا». لاحظ أنها سمحت لدخول نوع خاص من النساء يشاركن أهل بيت النبوة في الأحاسيس والمشاعر، دون بقية النساء اللاتي لا يحملن مثل هذا الإحساس والتاريخ المشترك. وفي الرواية أن قافلة السبايا حين دخلت الكوفة قدّم لهم بعض أهل هذه المدينة تمراً وخبزاً. فصاحت زينب: «إن الصدقة حرام علينا أهل البيت». فرمى كل واحد منهم ما في يده أو فمه وراح يقول لصاحبه: إن عمّتي تقول إن الصدقة حرام علينا أهل البيت. بهذا الشكل جعلت هذه الأسرة الكريمة تستشعر عزتها وكرامتها في انتسابها لآل بيت رسول الله (ص).

3- الإيمان بالمستقبل:

من عناصر التربية القرآنية في تحقيق النصر الإيمان بالمستقبل، الإيمان بانتصار العدل على الظلم

وانتصار الدم على السيف وانتصار المستضعفين على المستبكرين. هذا الإيمان كان راسخاً في نفس زينب وكان له الأثر الكبير في تحقيق هدفها الكبير.

في الرواية أنها رأت التأثير الكبير على علي بن الحسين وهو يستعرض ذكريات الواقعة الأليمة في كربلاء، ومشهد الأجساد المتناثرة على الرمضاء، فقالت له: «مالي أراك تجود بنفسك يا بقية جدي وأبي وإخوتي، فوالله إن هذا لعهد من الله إلى جدك وأبيك، ولقد أخذ الله ميثاق أناس لا تعرفهم فراعنة هذه الأرض، وهم معروفون في أهل السماوات أنهم يجمعون هذه الأعضاء المقطّعة والأجسام المضرجة فيوارونها وينصبون بهذا الطف علماً لقبر أبيك سيد الشهداء، لمّا يُدرس أثره ولا يُحمى رسمه على مرور الليالي والأيام، وليجتهدنّ أئمة الكفر وأشياع الضلال في محوه وطمسه فلا يزداد أثره إلا علوّاً». وبهذا الإيمان بمستقبل تسقط فيه دولة الظالمين تخاطب يزيد قائلة:

«فكد كيدك واسع سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا ولا تمت وحيناً، ولا تدرك أمدنا، ولا ترخص (تغسل) عنك عارها، وهل رأيك إلا فَنَدَد، وأيامك إلا عَدَد، وجمعك إلا بَدَد، يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين. فالحمد لله الذي ختم لأولنا بالسعادة والمغفرة، ولآخرنا بالشهادة والرحمة، ونسأل الله أن يكمل لهم الثواب ويوجب لهم المزيد ويحسن علينا الخلافة، إنه رحيم ودود، وحسبنا الله ونعم الوكيل».

4- الشجاعة:

وهي خصلة بارزة في مواقف السيدة زينب، وقد ورثتها عن أبيها، بل من مدرسة أبيها وجدها، وهي مدرسة القرآن التي تعلّم الإنسان أن يخشى الله ولا يخشى سواه، تربّت على أن الحوادث مهما كانت جسيمة لا يهتز لها قلب، ولا يرتجف لها جسد، وعلى أن تستقبل الموت وتطلبه، ومن طلب الموت كُتبت له الحياة وكُتبت له الخلود.

فهي تقف أمام طاعة زمانها لتقول له:

«ولئن جرّت عليّ الدواهي مخاطبتك إني لأستصغر قدرك واستعظم تقريعي، واستكبر توبيخك، لكن العيون عبرى والصدور حرّى».

الطاغية المتفرعن أمامها لا يستحق حتى التقريع والتوبيخ، فهي أكبر من أن تخاطبه بأي شيء حتى بالتقريع والتوبيخ.. أية شجاعة هذه؟!!

5- مفهوم النصر والهزيمة:

من العوامل الهامة التي تستطيع أن تحوّل الهزيمة إلى نصر والذلّ إلى عزّة ما يحمله الإنسان من مفهوم عن معنى النصر والهزيمة.

والإسلام ربّي أبناءه كي لا يعرفوا للهزيمة معنى، فهم ينالون على أي حال إحدى الحسينين، وانحسار

الحق لا يعني فشله وضعفه بل يعني تمحيص المؤمنين الصادقين، وانتفاش الباطل لا يعني انتصاره لأنه هو استدراج أهل الباطل كي يزدادوا إثماً. هذه المفاهيم كانت زينب عليها السلام تبتثها في المجتمع محاولة تصوير يزيد المنتصر بأنه هو المنهزم وبأنهم هم المنتصرون.. المنتصرون بما نالوا من فوز الشهادة.. والمنتصرون على المدى البعيد حين تهدم دماؤهم عروش الطواغيت.

تقول عليها السلام مخاطبة يزيد:

«أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نُساق كما تُساق الإماء أن بنا هواناً على الله وبك عليه كرامة؟! وأن ذلك لعِظامَ خَطَرٍ عنده؟! فشَمَخْتَ بأنفك، ونطرت في عطفك جذلان مسروراً، حيث رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأمور متسقة، وحيث صفا لك ملكنا وسلطاننا؟! فمهلاً مهلاً، لا تطش جهلاً. أنسيت قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّنُمَّا نُمَلِّئُ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّا نُمَلِّئُ لَهُمْ لِيَزِدَّادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (آل عمران:178).

وتقول مخاطبة ابن زياد حين قال لها: الحمد لله الذي فضحك وقتلكم وأكذب أذنوككم. تقول له: «الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه محمد(ص)، وطهرنا من الرجز تطهيراً. إنما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر، وهو غيرنا والحمد لله».

يعاود ابن زياد الطعن فيقول: كيف رأيت فعل الله بأهل بيتك؟ تجيبه بنفس تلك المفاهيم فتقول: «كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتحتاجون وتخاصمون عنده».

وفي رواية أخرى وهي الراجحة في رأيي أنها قالت:

«ما رأيت إلا جميلاً.. وسيجمع الله بينك وبينهم..».

نعم.. ما رأيت إلا جميلاً.. في هذه العبارة تلخص كل شخصية زينب بنت علي عليهما السلام.. وكل نظرتها العرفانية إلى الأمور.

أي جمال هذا الذي ينجلي لسلسلة بيت النبوة ولا تراه العيون المحجوبة عن رؤية الجمال الحقيقي في هذا الكون!! وأي جمال تستشعره هذه العارفة بالله ولا تحسسه القلوب القابعة في أكذبة الآثام والرزائل!! وفي عبارة أخرى تخاطب يزيد مؤكدة أنه أباد نفسه بنفسه حين فعل فعلته تقول له:

«فوالله ما فريت إلا جلدك، ولا جززت إلا لحمك..»

﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَعْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرَزَّزُونَ﴾ (آل عمران:169).

هذه المفاهيم يبتثها زينب في المجتمع، وانتشرت وزاغت بفضل الدماء التي سُفكت في كربلاء، وكانت الشرارة التي أيقظت الناس من سباتهم العميق.

وبقيت آثارها خالدة على مر التاريخ، وها نحن نراها اليوم تتجلى في ممرضات غزوة وفي النساء

المفجوعات في غزّة.

فسلام عليكمنّ بما صيرتنّ ونعم عقيبى الدار.

المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

الشؤون الدولية